

# الناصرية الغائبة الحاضرة

## انذار التاريخ وديمقراطية النهضة

مطاع صفدي

- ١ -

إن البحث عن آثار الناصرية في الأوضاع السائدة بمصر ومعظم أنحاء الوطن العربي . ليس هو المقصود بذاته . حتى لو سلمنا جدلاً بأن يحمل هذه الأوضاع تكادُ تولّف النقيض لما صنّعه الناصرية وبشّرت به وعملت من أجله . وبالرغم من أن النقيض مهما أساء إلى نقيضه . فإنه يثبت وجوده . وبرز خصائصه ومزاياه في الوقت الذي يكافح النقيض فعالية القطب الآخر . ويحاول طمس آثاره ونتائجه . ولقد قيل الكلام الكثير عن استمرار الناصرية بدون زعيمها . وعمّا تمثّله الناصرية في بنية المجتمع العربي المصري التي غيرتها الناصرية وأكسبتها علاقات وشادت لها هياكل ومؤسسات لا تزال قائمة وفاعلة في صلب الحياة المادية والاجتماعية والثقافية للمجتمع .

هذا إذا حصرنا النظرة في حدود القطر المصري . أما إذا تعدّينا إلى المحيط العربي والدولي فإن الباحثين . عرباً وأجانب . يقدمون كل يوم الدراسات الميدانية والتحليلية التي تثبت علمياً أساسية المرحلة الناصرية وامتدادها المتفاعل في بنية التاريخ العربي والدولي المعاصرين .

والحقيقة أن أهم ما يشغل هؤلاء الباحثين . سواء منهم من التزم بالناصرية أو النهضة العربية . أو من جمع بين الالتزام والنهج العلمي . ومن كان ليس من هؤلاء أو أولئك على الساحة العربية . ومن كان مؤرخاً أو أيديولوجياً في المساحات العالمية . أهم ما يشغل هؤلاء هو تقصي تراث الناصرية . ودراسة منجزاتها . أو كشف بعض أسرارها . لمهدف علمي أو أيديولوجي . سلمي أو إيجابي . ويجمع معظم النتائج الذي أعطاه الدارسون والأيديولوجيون توجه شامل يربط المرحلة الناصرية بزعيمها . ويحدّد نطاقها وفعاليتها بعمر إنسان وفعالية إنسان . جاعلة منه القدر الذي يوقع الخير أو الشر . ويحمل وحده إما شرف الخير وبطولته . وإما وزر الشر وإدانته .

وليس الباحثون والكتاب العقائديون العرب وحدهم المقتنين برد المجتمع إلى الفرد . وربط صناعة التاريخ

بالبطل منتصراً أو مهزماً . بل ينخرط غير العرب في هذا التيار . وبعضهم يعي ما يفعل من كل بد . لأنه غير راغب في اعتراف بتاريخ أمة ووجود مجتمع . بقدر ما يهمه أن ينحصر كل ما كان بصيرورة فرد . يصير في اختفائه زوال وانقضاء كل شيء . وعودة الأمور إلى نصابها . كما لو أن عاصفة أو كابوساً أو حلماً مرّ ببناء فأبقضهم ضمن الحلم . وتبدد الحلم . وعاد أهل الكهف إلى كهفهم .

وربما كان الموقف الغربي الذي يجمع أكثر من كتب ويكتب حول الناصرية . حريصاً على تغييب مرحلة اليقظة السياسية والاجتماعية الأوضح والأشمل من تاريخ نهضة العرب المعاصرة التي كتبتها الناصرية . وكانت لها أكبر رمز وأهمه . من أجل أن تقطع الرمز عن أصوله ومضمونه . وتبديد صلته الحيوية الجدلية المتغيرات الاجتماعية والقومية التي ولدتها . وهيأت دورها . وتلقّت عطائه وتأثيره . وانطبعت بيده الصانع . وحملت ملامح شخصيته . باعتبارها الرمز والتجسيد الإنساني لإمكانية الخصب التي تعد بها النهضة العربية الحديثة .

وليس من شك فإن هذا التوجه العام للكتابة عن الناصرية لدى الغرب إجمالاً . ولدى معظم الكتابات العربية . قد حدّد سلفاً النهج العام الذي سوف تأخذ به خطة التعبئة المدروسة المادفة إلى قمع لحظة اليقظة . وإجهاض وعودها النهضوية . وإيقاف جدلية النمو التي فجّرتها في بنية الأمة قسرياً وقومياً . فليس من شك بأن هذه الجدلية لو تركت لحركتها الذاتية لاستعصى على خطة التعبئة المدروسة التي تستهدف قمع لحظة اليقظة . إعداد البديل وطرحه أو فرضه بفعل القوى المضادة الخارجية وحدها .

هنا نصل إلى النقطة الرئيسية التي يحذر بالمفكر العربي أن يتوقّف عندها ويتأملها طويلاً . تنبئ هذه النقطة من خلال التساؤل القائل : هل يمكن اعتبار مرحلة ما بعد الناصرية التي تعم مصر ومعظم الوطن العربي حالياً . تمثل النقيض أم البديل لتجربة اليقظة السابقة المقترنة بالقيادة الناصرية ؟

لا بدّ من الانتباه أولاً إلى الفارق الأساسي بين تكون النقيض . وتكون البديل . فكما أوضحنا في دراسة سابقة<sup>(١)</sup> . فإن النقيض هو قطب يتولّد عضوياً من داخل الجدلية التاريخية التي هي في أساسها حركة تفاعل بين التناقض تولد المركبات الإيجابية . بصرف النظر عن التمدّبات التجريدية من هيكلية وماركسية . في حين أن البديل هو الحالة أو الوضع المقحم على الجدلية من خارجها . وبفعل ظروف طارئة . ويهدف إلى التدخل في حركة الجدلية . وحرف اتجاهها . وتعطيل نموها التلقائي بفضل قوانينها الخاصة . لتحل مكانها حركة الاستبدال . بحيث تتراجع عقلانية التطور . أمام طغيان متزايدات لمتغيرات لا عقلانية . تمنع النمو العضوي ضمن هيكلية متجانسة . وتفرض عوضاً عنه تراكم البدائل دونما أي علاقات معقولة أو واقعية فيما بينها .

ففي لوحة العلاقة بين المرحلة الناصرية والمرحلة الحاضرة<sup>(٢)</sup> . تتوالد سلسلة من البدائل الرئيسية والثانوية . بفضل ظروف طارئة . بعضها يعود إلى داخل الساحة المصرية والعربية . وبعضها يرجع إلى العوامل الدولية المحيطة .

وحى تلك الظروف الناجمة داخلياً . فإن تميزها الأصلي هو كونها متخارجة حتماً عن سياق النمو العضوي لتاريخية المرحلة الحاضرة .

وربما كان أهم هذه الظروف على الإطلاق تضخم ظاهرة التنمية الاقتصادية النابعة أصلاً عن وفورات النفط . التي هي بدورها ثروة هابطة من خارج فعالية المجتمع العربي وتطوره التلقائي .

يقابل هذا الظرف الذي يمتد في طول الوطن العربي وعرضه تقريباً . ظرف آخر متكون من داخل القطر المصري ذاته . وهو شلل فعالية التنمية بمظاهرها المختلفة تحت وطأة انقطاع الهيكلية السياسية التي كانت تؤلف لها الإطار السلطوي والقانوني والاجتماعي . بعد غياب حارس تلك الهيكلية ومبدعها التاريخي . وهو جمال عبد الناصر .

فلقد كان لانهار هذه الهيكلية السياسية داخل القطر المصري بعد وفاة زعيمها بفترة قليلة أخطر النتائج التي تجلت في عجز البنية الاجتماعية الاقتصادية عن ملء الفراغ السياسي مباشرة . وبدلاً من ذلك فقد سارع الوريث السياسي في رأس الهرم إلى الاستفادة من أدوات السلطة الفوقية التي كانت مرتبطة بالزعامة السابقة . لغرض شكل بديل من الحكم . يعيق تولد القطب النقيض . وهو القطب الذي كانت سوف تفرضه محصلة المتغيرات الاجتماعية الاقتصادية التي بنتها مرحلة النهضة السابقة .

ولنفصل الشرح قليلاً حول هذا المركب المنحرف الجديد . ولنسأل مبدئياً . هل كانت لحظة النمو الذي بلغنا النهضة داخل القطر المصري حين غياب شخص عبد الناصر . تنبئ عن بوادر وإرهاصات لتولد الإطار الجديد الذي يسمح بتغيير شكل السلطة الهرمي . وتمهد الطريق إلى ظهور نوع من الديمقراطية الملائمة التي تعكس حالة النمو الاجتماعي الاقتصادي والثقافي في ذلك الحين .

لدينا أجوبة جاهزة على هذا السؤال تكاد ترجع إلى جواب واحد شائع لدى معظم المهتمين بدراسة الناصرية . وهو القائل بأن عبد الناصر لم يكن بعد قد فرغ من تشكيل التنظيم السياسي الذي تأخر حتى اقتنع بضرورته . وعندما شرع في بنائه لم يمهله العمر لاستكمال . وإعداده لتقبل مفاجأة من نوع موت الزعيم أو اغتياله أو قلبه .

كأنما يمكن اعتبار أن هذا التنظيم السياسي . فيما لو اكتملت له أسسه وبنياته . هو المقابل الطبيعي لسلطة الزعامة . التي إذا ما اختفت أو زالت . شكّلت هي الإطار السياسي المناسب للحظة النمو الاجتماعي - الاقتصادي المتمثلة في المؤسسات القائمة فعلياً في أرضية المجتمع .

غير أنه بدلاً من أن تتجه حركة التناقض عميقاً من القمة إلى القاعدة . فإنها اتجهت أفقياً . وجاء البديل عنها رمزاً سلطوياً آخر مجاوراً للرمز الغائب . وإن كان بمضمون مختلف تماماً .

ولقد استطاع الرمز الجديد خلال أشهر قليلة أن يجمع المضمون التاريخي ويشلّ فعاليته . وأن يستبدله بمضمون

آخر أبرزته شريحة أخرى من الهرمية الاجتماعية القائمة. تلك هي شريحة البيروقراطية التي استطاعت سريعاً. وبعد استبدال رؤوس مكاتبها. أن تتوسط بين القمة والقاعدة. وأن تسد الطريق أمام صعود الإفراز السياسي المحتم للبنى الاجتماعية الاقتصادية التي أسست قاعدة النهضة في صلب المجتمع العربي المصري. فتمنع وصوله إلى قمة الهرم وتكون سلطة النهضة بوجهها الشعبي بعد انقضاء وجهها الزعامي الفردي.

وهكذا حتى لو سلمنا جدلاً بإمكانات التنظيم السياسي الذي كان لا يزال في مرحلة التكوين الأولى. وقدرته على ممارسة دور التحويل الديمقراطي. فإنه لا بد من العودة إلى طبيعة التركيبية الاجتماعية التي كانت تملأ الطبقات العليا من الهرم الزراني. فلا شك أن مجموعة الأجهزة المكتبية العليا التي كانت تنقسم قيادات الإدارة الحكومية والرقابة الأمنية وشبكات التقرير والتنفيذ السياسية. بالإضافة إلى البيروقراطية العسكرية في الجيش. وبيروقراطية القطاع العام في أجهزة الإنتاج الرئيسية. نقول إن هذه المجموعة المطلقة القدرة والنفوذ في مجالاتها. والتي كان يستوعبها مشروع الزعامة الأعم والأشمل خلال حياة الزعيم. ويضبط حدود ممارستها. ويخضعها إلى سلطة القيم الرئيسية لمشروع النهضة. بنتائج ومردودات متفاوتة الطبيعة والدرجة طبعاً. أصبحت في لحظة واحدة طليقة الولاء. حرة المبادرة. ولكن بنقصها الغطاء السياسي الحديد الذي يسمح لها بدفن مشروع الزعامة في نموذجية النهضة. ويفسح المجال أمام مشروع طبيعتها المصلحية الخاصة. وبينما كانت تلك الأجهزة والمكاتب والقيادات من الدرجة الثانية. أدوات للزعامة التاريخية في تحقيق مشروع النهضة. فإنها صارت من القوة والسيطرة العملية بحيث أنها لن تسمح إلا بظهور القيادة السياسية المشابهة لها في طبيعة توجهها المصلحي الفئوي والطبقى. القيادة السياسية التي ستكون أداة لها. ولذلك فلم يكن من المحتم أبداً أن تستمر الناصرية بعد غياب زعيمها التاريخي. في قمة السلطة. بقدر ما كان من المحتم أن يقع الانقلاب المنتظر. وهو فوز طبقة السلطة في المرتبة الثانية. بموقفها الجديد في الصف الأول مباشرة. سواء كانت أداة وصولها شريحة منها. أم فرداً يحمل ذات دوافعها وأهدافها ويحتاج إلى مساندتها وتحالفها الفوقي معه.

وهكذا فتح ميدان السباق والرهان أمام صراع النقيضين الاجتماعيين اللذين كانا عبر تجربة مشروع النهضة يشكّلان وجهي ممارستها تحت ظل القيادة التاريخية. وهما بيروقراطية الدولة من جهة. ومؤسسات الإنتاج والثقافة والمنظمات الشعبية المختلفة من جهة ثانية. ففي حين كانت بيروقراطية الدولة. في ظل القيادة التاريخية. تشكل الإطار الأدائي لبناء تلك المؤسسات ونموها الذاتي. وبذلك تنظم فعالية الإطار بما لا يعرقل ولو ظاهرياً أو مرحلياً عملية البناء المؤسس لقاعدة المجتمع الجديد على مثال المجتمع الإنتاجي التاريخي الجديد. فإن هذا الإطار يصبح هدف ذاته ليولد مضمونه السلطوي السافر. وبحوله من طبيعة سلطة الإدارة إلى طبيعة سلطة الحكم والسياسة المباشرة. وبالتالي يصبح التحدي الجدلي في مواجهة بنى الإنتاج. لكي تفرز في صراعتها توأمها البيروقراطي. سلطتها السياسية. واستعادة المبادرة من وضعها الفوقي المنحرف إلى وضعها التاريخي الجدلي الأصيل. وتلك هي ساحة الرهان والسباق وتحدياتها المصيرية التي تميز المرحلة الحاضرة على الأقل من تاريخ الناصرية الغالبة. الحاضرة.

ذلك أن تجربة عبد الناصر ضمن حدود القطر المصري تكاد تؤلف نموذجاً فريداً في تاريخ ثورات العرب والنعم الثالث . إنها تجربة « الثورة الرعائية » . إن صَحَّ التعبير . بحيث ينهض شخص واحد بأعباء ثورة كاملة لا تقف عند حدود القطر . بل تتعداها إلى وطن كامل زاحر بالإمكانات والمعوقات .

غير أن فردية الزعامة الناصرية كانت في الآن ذاته قادرة على استقطاب عوامل التغيير وإمكاناته التي تغص بها معظم الأقطار العربية من مشرقية ومغربية . وبخاصة منها المشرقية في تلك الفترة .

فكانت نهضة عبد الناصر بقوى التغيير في الوطن العربي . تؤلف له سلطةً أوسع من سلطة رئاسة حكومة أو دولة معينة . فكان يقبل على فرض المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية في القطر المصري بهيبة القائد النهضوي الذي يتكلم باسم التاريخ . والذي عليه أن يحقق ما يحققه ضمن حدود بلده . ليجعل من بلده أولاً نموذجاً للتقدم الجديد . ويطور من إمكاناته ليحمي مسارات التغيير في البلاد الأخرى المستجيبة لحركة النهضة الشمولية .

ولكن بالمقابل فإن ضخامة المشروع النهضوي داخل القطر . وفي مساحات نضالية عربية متعددة لم تكن لتمهل القائد التاريخي لبناء أدوات الموضوعية المستمرة . فكانت أجهزة الدولة التقليدية هي الأدوات الجاهزة . فيتم تعديلها دون أن تتغير طبيعتها الأصلية . ويسير التعديل غالباً نحو التضخم بالحجم . والتعاظم بالسلطة والتنفوذ .

وكان الزعامة الناصرية التي كثيراً ما توجست من سرطان البيروقراطية وعانت من رؤوسها المتعددة ومراكز القوى المتحجرة في جسم الدولة . كأنها كانت في سباق ورهان آخرين . تؤدبها لتفوز بتحقيق بعض أهداف في تغييرات فعلية في بنية القاعدة الاجتماعية . تستطيع بها أن تقلب على مراكز القوى وتسقطها من أبراجها المحصنة . لتصعد مكانها سلطة الديمقراطية الشعبية .

ففي الوقت الذي كانت مصلحة القائد التاريخي تنصهر وتتداخل مع مصلحة مشروعه النهضوي . فإن الأجهزة البيروقراطية كانت تنمو لديها مصالح طبقية فعلية تتعارض تدريجياً مع المشروع النهضوي المتوجه أصلاً إلى أوسع قاعدة اجتماعية وقومية . وبذلك كان من المحتم أن تجي اللحظة التي تتصادم فيها مصالح الطبقة الجديدة مع مصلحة النهضة ورموزها في القيادة والقاعدة

وعندما حلت هذه اللحظة ابتداء من هزيمة الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . وانكشف تهافت قيادات الدرجة الثانية عسكرياً وسياسياً وإدارياً . بل انكشف انحراف بعضها وخيانة البعض الآخر إلى جانب سلسلة من مواقف الجبن والانتهاز والانتفاع الشخصي . نقول عندما حلت لحظة المحاسبة . وبدأت خلايا التنظيم السياسي تمد أول شبكة حقيقية متجانسة بين القمة والقاعدة . كان الموت أسرع في الإجهاز على المشروع الديمقراطي الوليد كآخر حلقة من مشاريع النهضة العربية على طريق التحول الديمقراطي الشعبي الحقيقي .

لقد وصل نمو التجربة الناصرية إلى الحد الذي تواجه فيه مشكلة التحول الديمقراطي كتعبير تاريخي اجتماعي ضروري. نابع عن جدلية تحققاتها الموضوعية. بدلاً من أن تواجه ضرورة التحول من خارجها وقسراً عليها. كما هو مصير السلطات الفوقية في العالم الثالث إجمالاً.

وكان على السلطة التي ورثت عبد الناصر أن تختار بين المضي في طريق مشروع النهضة وبالتالي كان لا بد من تحقيق أوامر اللحظة التاريخية في تلك الفترة القاضية بضرورة تشريك السلطة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً. وبين الاندماج في تركيبة البيروقراطية التي كانت تتحول إلى بورجوازية كبيرة. لديها وسائل اقتناء الثروات بالخروج من دائرة الاستغلال الإداري وحده إلى دائرة الاستغلال الاقتصادي. بعد أن زالت هيمنة الزعامة التاريخية من فوق الرؤوس.

والحقيقة انه لم يكن ذلك اختياراً بالمعنى الصحيح. إذ أنه لم يكن ثمة عقبة قادرة على إيقاف الصعود المتنامي للبيروقراطية نحو البورجوازية الاقتصادية إلا استمرار الزعامة التاريخية في رأس الهرم. وكان مضي هذه الزعامة التي لم تستطع بعد تشريك سلطتها لقاعدة هرمها. لا يفترض بروز زعامة تاريخية أخرى من جنسها قادرة على متابعة مشروعها النهضي الكبير. وبالتالي فإن أية شخصية رئاسية من الحجم العادي تأتي بعد عبد الناصر. كان لا بد لها أن تجد دعماًها الأولى في البيروقراطية الجاهزة لتتحول الرئاسة نفسها إلى أداة للسلطة السياسية المتحالفة معها والخاضعة لمصالحها.

هكذا سقط المشروع النهضي من مستوى السلطة السياسية والاقتصادية إلى مستوى قواعده التاريخية التي أرستها وأسستها مرحلة الزعامة الناصرية. عبر التغيرات الضخمة في بنية التركيب الاجتماعي للقطر المصري. ولكن بدون سلطة سياسية متجانسة مع طبيعتها.

- ٢ -

فلم تكن مفاجأة أن يجعل النظام الساداتي عنوان ممرسته لتغيير الديمقراطي. غير أن طبيعة النظام الجديد الذي تتحكم فيه بورجوازية البيروقراطية القديمة والصاعدة فرضت منذ البداية إجهاض الديمقراطية الشعبية. والشروع في تأسيس دكتاتوريتها الخاصة التي تجمع سلطوية الدولة إلى جانب سلطوية الاستثمار الاقتصادي. فكانت خطة القضاء على المكتسبات الاشتراكية داخلياً. والتحالف مع الرجعية العربية ثم مع الامبريالية. وكخطوة أخيرة وثالثة مع الصهيونية مباشرة. هي الممكنات الوحيدة التي تؤدي إليها تركيبة السلطة الجديدة المبنية من تحالف البيروقراطية والبورجوازية الكبيرة الصاعدة فوق مؤسسات التصنيع. والمتجهة نحو نموذج اقتصاد الخدمات بما يتضمنه من تعميم لعلاقات الوساطة والنشاطات العقارية والسياحية والإنتاج الاستهلاكي المحدود.

فالردة من القومية إلى الإقليسية . ومن الاشتراكية إلى الليبرالية . ومن التنظيم الشعبي إلى دكتاتورية البيروقراطية والبورجوازية التجارية والاستهلاكية تتطلب نموذج الحماية المهددة في دول العالم الثالث . المتجلب في العودة الكاملة إلى التبعية الوطنية لنظام الامبريالية العالمية . بقوانينه المعروفة وممارسته المكشوفة .

فإن أي حد يمكن أن تنجح إعادة إنتاج نظام الردة هذه في أوجهه المختلفة داخل القطر وخارجه ؟ ذلك هو السؤال الحدي الذي نجب معالجته بعيداً عن موجات التشاؤم الذي تولده خيبات الأمل الوطنية والقومية . وبعيداً عن التفاؤل الذي تصطنعه المذاهبات المجردة .

فهل إن إعادة إنتاج نظام الردة . والسقوط التاريخي . والنكسة النهضوية . لن تثير مقابلها إعادة إنتاج لتكوين جديد . يمثل فيه التهاض تاريخي اجتماعي يعبر عن استمرار فعالية الجدلية . تثبت حيوية المجتمع الذي حقق كسر ركوديته منذ أن شرع في معاناة أنماط تركييبية متنامية عبر مراحل السقوط والانبعاث المتجدد ؟

مثلاً كانت نهضة العرب المعاصرة في ظل الناصرية تنمو على محور الصراع المستمر بين فعالية الاستقلال الوطني وخطط الامبريالية المتلاحقة ضدها . بحيث ترتبط عضويًا كل ذروة في هذا الصراع بتولد قوى جديدة داخل هرم المجتمع تطرح تغييرات متناسبة الحجم والعمق مع تلك الذروة . فإن عصر الردة المهيمن بمختلف مظاهره . والفاعل بمختلف قوانينه في طول الوطن العربي وعرضه . تنمو عقده المتلاحقة كذلك داخل الأقطار اجتماعيًا واقتصاديًا . وعبر علاقاتها فيما بينها . وبالدوائر الامبريالية وتوابعها حوها . بحيث تفرض كل خطوة ارتداد على خط الصراع بين الاستقلال الوطني والامبريالية انتكاس يقابله في الدائرة الاجتماعية داخل القطر .

فحين كانت معارك الاستقلال الوطني تتابع عبر نمو عضوي متناكس . من حلقه إجلاء جيوش الاستعمار القديمة إلى مقاومة سياسات الأحلاف السياسية والعسكرية المفروضة من قبل الاستعمار الجديد . إلى كسر حصار الأسلحة . إلى إسقاط الأنظمة التبعية . إلى حروب التحرير المباشرة . كان عصر النهضة العربية تتكامل عوامله من سياسية واجتماعية اقتصادية وثقافية . وتنسج هذه العوامل فيما بينها علاقات موضوعية تاريخية قابلة للعقلنة التي يمكن بدورها أن تؤدي إلى بناء أسس عقيدة تعيد الصلة بين العقل والواقع . وتقدم للإنسان العربي المكافح قانونًا موضوعيًا تبرر كفاحه . وتفتح له سبيلًا واقعيًا نحو تفاؤلية بمسيرة التاريخ المتقدمة على وتيرة تراكم الإنجازات الإيجابية .

وكان أهم أساس هذه العقيدة هو البرهان اليومي على مدى القابض الجدلي في نموذج نهضة أمم العالم الثالث بين وجهي الكفاح . خارجيًا ضد محططات الامبريالية وتطور أدوات قمعها . وداخليًا ضد التخلف الحضاري . بحيث يأتي هذا النموذج النهضوي الجديد ليثبت بدوره أن قوى النهضة في أمم من العالم الثالث لم تعد مرتبطة بجدلياتها التاريخية الاجتماعية الخاصة بها . كما هو حال القانون التاريخي الذي سارت بحسبه نهضات أمم العرب منذ قرنين من الزمن . بل إن وضع هذه الأمم المتخلفة إجمالاً تحت رقابة حضارة متفوقة ومتقدمة عليها في كل شيء تقريبًا يجعل عملية تراكم

إنجازات النهضة الداخلية ودر حر تراكمت التخلف المترتبة في عضوية المجتمع . مرئبة إلى أبعد حد بما تقدر عليه الأمة الناهضة من إمكانيات تطوير استقلالها الفعلي وردع عوامل التدخل والإعاقة المتعددة والمتطورة هي ذاتها . التي تمارسها امبريالية الحضارة المتفوقة في كل شيء .

وإذا ما اختل التوازن قليلاً لصالح عرقلة التطوير في خط الاستقلال الوطني الفعلي . فلا يصيب الشلل قعدة التراكم الحضاري داخلياً فحسب . بل يمكن لعوامل التخلف الراكدة أن تنتعش وتُعرف الجدلية الاجتماعية . وتفرز الطبقات الفوقية الهامشية التي لن تُجد حماية لسلطانها إلا بسلوك طريق مضاد للاستقلال السياسي . وإعادة الترابط التحالف مع العدو القومي التقليدي . المتجسم في الامبريالية وأعوانها ضمن المجال الاستراتيجي المحيط بالأمة الناهضة .

إن التخلي عن المشروع النهضوي المترابط مع الممكنات التاريخية يفترض استبدالاً آلياً بالنموذج النهضوي المزيف الذي تفرضه الامبريالية . من خلال إعادة دمج المجتمع الناهض اقتصادياً وسياسياً بالدورة العالمية التي تسيطر عليها مراكز الإنتاج الرئيسية التابعة للرأسمالية في أوطانها الأصلية . وهكذا تنحرف النهضة المعبرة عن إمكانيات المجتمع الخاصة إلى أشكال من التثنيات الظاهرية التي تكون ثروات الشعوب هي وقودها الأولي مع تلك الإمكانيات . فالتحريف النهضوي هو الوجه الذاتي الداخلي لإعادة إخضاع المجتمع خارجياً لنموذج التنمية المفروض من قبل الامبريالية عن طريق القمع المنظم لممكنات الاستقلال الفعلي .

وما تشهد الأمة العربية اليوم يكاد يؤلف أعلى أشكال هذا النموذج من إعادة دمج بعض أقطارها الرئيسية في نظام التبعية شبه الكاملة للامبريالية وأدواتها المباشرة المتواجدة داخل المجال الاستراتيجي العربي . وأهمها إسرائيل . وحليفها التي أسفرت عن وجهها أخيراً : الرجعية النفطية . إن التغير النوعي الأخطر الذي استطاعت أن تحققه الامبريالية الأميركية في غياب الزعامة الناصرية . وهو البديل الذي صنعه منذ القديم . تحويل دور أكبر قطر عربي من قائد وصانع لمشروع النهضة العربية إلى وضع المثبي للدور العكسي تماماً . وذلك بإيقاف تنمية الاستقلال الوطني . والتحول إلى وظيفة الأداة الضاربة ليس لاستقلال قطرها فقط . بل لاستقلال الأمة العربية . وتدمير جميع التراكبات التحررية التي اكتسبتها خلال مرحلة نهوضها السابقة .

بكلمة واحدة فإن انحراف السلطة في مصر نقلها مباشرة إلى انتزاع دور إسرائيل وتحقيقه بالنيابة عن إسرائيل . ضد مصر وضد كل قطر عربي ما زال له بعض الانتماء إلى مرحلة ما قبل التحريف والاستبدال . مرحلة النهضة الناصرية .

فاتحالف بين بورجوازية التنمية الاستهلاكية ورجعيات الإقطاع السياسي القبلي والصهيونية والامبريالية يعقّق الشبكة المتجانسة والمعمولة بالنسبة لعلاقاتها المتكاملة فيما بينها . وهي بالطبع تستوعبها جميعاً أوسع دواثرها . أي



الامبريالية العالمية التي تزرع وتغذي وتحمي في كل منطقة استراتيجية من العالم مثل هذه الدوائر والإطارات المضادة الصادرة عن ظروف المنطقة ذاتها.

وليس الحديد في مثل هذه الشبكة إلا الانعطاف الخاص الذي تأخذه حالة السقوط والانحسار التي تواجهها نهضة العرب في الظروف المستجدة الحالية. ويتشكل هذا الانعطاف في نوعية التخطيط الذي تدبره الامبريالية من أجل استئصال وجود أمة ناهضة وتحويله بكامله إلى صحراء حضارية. تتخللها بقع مستنقعات من إبتنيات عرقية وطائفة مبعثرة متنازعة. بعضها القليل ينصلب في أبراج الرفاه والبطالة والعطالة. وأكثرها يدخل في نقابة شعوب العالم الثالث التي تصير إلى مجرد أرقام ديموغرافية. يذكروا العالم (المتمدن) من حين إلى آخر للتبشير بعصر المجاعة القادم.

تحدد نوعية التخطيط الخاص الذي تدبره الامبريالية الأميركية لقمع النهضة العربية في هذا الاهتمام الأولي الذي تعطيه فيما يشبه استقطاب الوجود والعدم بينها وبين الأمة العربية. فأميركا بكل بساطة تؤمن أن مستقبلها القريب جدًا والبعيد جدًا متعلق بسيطرتها على نفط العرب. فإما أن تستلبه كله منذ الآن وتزيل أصحابه بالطبع. وأما أن تواجه حضارتها فقر الدم أو سرطانه الذي إما أن يدفعها إلى الحرب الذرية أو يدفعها تستسلم إلى مصير التحول نحو الصف الثاني من الدول الصناعية. وراء اليابان وألمانيا<sup>(٣)</sup>

وهكذا فلقد فرضت ثروة النفط على العرب أن يتحول وطنهم إلى تكساس جديدة لا حياة لأميركا الحاضرة بدونها. كما لم تكن لها حياتها بدون تكساسها الأصلية التي غدت صناعتها الجبارة بنفطها طيلة ثلاثة أرباع القرن الحالي<sup>(٤)</sup>.

ومن هنا يتضح المعنى الحقيقي لمؤتمر «معسكر داوود». فهو يستهدف مباشرة الاستقلال الفعلي للأمة العربية. كما استهدفت في مطلع هذا القرن معاهدة (سايكس-بيكو) تقسيم الوطن العربي بين فرنسا وبريطانيا. والفرق بين الاثنين. هو أن المؤتمر الأخير شاركت فيه أكبر دولة عربية مستقلة إلى حد معقول. وكانت قائدة الاستقلال القومي. وكانت مشاركتها رمزاً للتنازل عن استقلالها الخاص. وتحولها إلى رأس حربة أخرى مع إسرائيل للإجهاد على معالم الاستقلال في الأقطار العربية الأخرى.

غير أن معنى المؤتمر الأخير كذلك يتضح من هذه الصورة. وهي أن أكبر دولة للامبريالية العالمية يتعلق مصيرها التاريخي باستلاب أمة أخرى ليس استقلالها فحسب. بل بمجرد وجودها الفعلي على أرضها.

فهل هناك أقسى واضخم من هذا التحدي الذي يواجهه العرب. وهم في وضع الشت والمغرب في وطنه وفي ظل أكثر انظمته السياسية المتهاكة على مشاركة المغتصب وتسهيل مهمته. والتغني بـ (شرف) الاستسلام. وإذا كانت تلك طبيعة معركة الوجود أو اللاوجود التي فرضتها أميركا على العرب فإذا يمكن للعرب أن يعدوا من

استراتيجية مضادة . تتجاوز صور الصراع السياسي والحزبي والفئوي وسواه من اشكال الصراع التي يبدو انها تشغل الساحة اليومية<sup>٢</sup>.

لا ريب ان ازمة النهضة العربية لا تزال مرتبطة بالخيارات السياسية وما يمكن ان تسجله من انتصارات ونكسات . ومهما نحاول بعض المفكرين عزل فعالية النهضة عن الظروف السياسية المحيطة بها . فإن الواقع يلزمهم بالاعتراف بما هناك من وشائج عضوية ومادية بينها . ومن ذلك مثلاً بعض الانظمة العربية التي تدّعي حياداً او انسحاباً من ساح الصراع القومي . والانكفاء الى ما يسمى تنمية البلاد داخلياً زراعياً وصناعياً الخ . فهذه أنظمة في واقع الحال تمارس ايضاً نوعاً من السياسة . ليس بالنسبة لاقطارها فحسب . ولكن لها مردودها المباشر او غير المباشر على حسيلة التطور السياسي في الدائرة القومية الاوسع .

وحتى لا نتابع التفصيل في هذا الاتجاه . فإنه يهنا الاشارة بوضوح الى انه ليس من نهضة حقيقية الا كانت السياسة هي الاطار الواقعي لها . وبالتالي لا يمكن تجريد او تعرية التنمية عن السياسة الا اذا قطعت كل صلة خا بمشروع النهضة . واصبحت مجرد مجموعة من الفعاليات المتضاربة المستهلكة لاموال الدولة . دون تحقيق اي تغيير نوعي واضح في بنية المجتمع والدولة . كما هي الحال السائدة في أكثر الاقطار النفطية المنكفئة الى سياسة الاستقرار الداخلي . وهي السياسة التي تدعي عدم التدخل في شؤون اقطار الاخرى . في حين يساهم اقواها وأكبرها في قمع النهضة القومية . والتعاون مع قوى الردة والتخلف الثقافي والسياسي . والتحالف في بهية المطاف مع اميركا الصهيونية . ويقابل هذا الوجه (الخارجي) لمثل هذه السياسة . وجه داخلي بعمم الإنماء العقيم ويربطه بمصالح البورجوازية الجديدة الصاعدة والشركات العالمية متعددة الجنسية . اي عودة طوعية الى الاندماج في دورة الاقتصاد الرأسمالي الدولية .

وهكذا فإن المعركة الجديدة القديمة المفروضة على العرب بما تأخذه من ابعاد متعددة . وبما تحمل من التحدي الشامل لعوامل الاستمرار . مجرد الاستمرار . للامة العربية تجعل اعادة النظر في طبيعة النهضة والسياسات الظاهرة والضمنية التي توجهها . اهم موضوع يتوقف عليه بناء استراتيجية الدفاع الحضارية . فإن التعبئة المتعددة المصادر التي يتمثل فيها هجوم الامبريالية على امكانيات الوجود العربي اصبحت تتجاوز نوعياً وحجمياً جميع الأساليب المعتادة التي القتها اشكال المعالجة السياسية المعتادة .

فند غياب القيادة الناصرية والقوى التقدمية تتراجع الى مواقع ردود الفعل الآنية . وتخضع للحصارات المفروضة عليها في تلك المواقع . حتى اصبح الحاضر العربي يعاني من هزائم سياسية واجتماعية متلاحقة لا تتطلب هزائم عسكرية يوقعها بها العدو على حدود هذه الدولة او تلك . وصولاً أخيراً الى الحالة المتردية الراهنة التي جعلت من اكبر قطر عربي . كان يؤلف مستودع الذخيرة الحضارية ومركز قوى المقاومة المختلفة . يتحول هو نفسه وبذات قوى التأثير التي يملكها على محمل مراكز الفعالية والمقاومة الاخرى . الى الاخذ بدور التدمير الداخلي لفعاليته التاريخية . وفعالية بقية الطاقات الثورية والنهضوية في الوطن العربي .

وبالرغم مما تشيعه المذاهب المتفائلة بأن انحراف النظام للقطر المصري لا يفترض بالضرورة انحراف مجتمعه . وتطلع الى إمكانيات التفجر الشعبي التي لا بد ان تنسف اسس ذلك النظام وتسقط بإسقاط الطبيعة البورجوازية التي تدعّمه وتغذيه . فإن استراتيجية الدفاع العربي لا يمكنها ان تؤجل نشاطها الى حين عودة وقوع هذا الانفجار المأمول به . مع الاعتراف الواقعي باساسة التواجد الضروري لتضال الشعب العربي المصري .

ان مهندسي الاستراتيجية الجديدة ليسوا هم الايديولوجيون والنظريون السياسيون وحدهم . ولا حتى القادة التقدميون من رسميين وشعبيين وحدهم . على الرغم بماضياً من الأهمية والفعالية . فلقد حان الوقت لاستنارة نخبة العقول المفكرة والعلمية المتخصصة من اجل تخطيط وتغذية نهضة حضارية ومقاتلة في الآن ذاته قادرة على مواجهة خطة الدمار الشاملة التي تعدّها أكبر حضارة تقنية . تفيد من اعلّى مكاسبها العلمية والآلية لايقاع الهزائم الساحقة من تعثر هذه الحضارة انه يمتلك التحكم بمصيرها القريب .

فليس ثمة قطر عربي واحد بمنجى من العاصفة القادمة . مثلاً ليس السياسيون ولا الايديولوجيون ولا القادة التقدميون هم ابطال المسرح . وشعوبهم وفئات هذه الشعوب من العلميين والمثقفين . والعمال والعسكريين وسواهم . هم المتفرجون والمتفعلون . يظهرون ويُغيّبون . للتصفيق او النعي .

بعد نزعة الناصرية لم يعد ثمة قوة قادرة على الفعل نيابة عن أمة وعن تاريخها . فديمقراطية النهضة والدفاع النهضوي تعني في الايام الحاسمة التي نعيشها . استحضار أعمق قوى المقاومة وأكثرها تنوعاً وخصباً وفعالية . انها لحظة تشريك الأمة في صنع مقاومتها .

بقي التفكير حقا حول : أية نهضة لامتنا . وأية استراتيجية دفاع تاريخية قادرة على جعل أمة تنخرط بكل تراثها وإمكانياتها من أجل قلب الصيغة المفروضة . فتأخذ مرة واحدة زمام المبادرة . ولا تظل مرتبّة ضمن حصار ردود الفعل الآتية والشعارية والمنفعلة .

إذا ما عم الاحساس بالخطر الشامل فلا بد ان تنفجر ديمقراطية الدفاع . ربما كان ذلك خلاصاً . او .. شعاراً آخر .

### الهوامش

- ١ . راجع الدراسة للكاتب في العدد الأول من مجلة « الفكر العربي » .
- ٢ . وهي المرحلة التي لا يمكن أن توصف بالساداتية نسبة للسادات - رغم أنه يمثل أحد رموزها الرئيسية . ذلك أنه يمثل بالأحرى أحد أحضر أدوات تحقيقها إلى جانب أدوات ورموز كثيرة أخرى متنوعة .

٣. تثبت جميع الدراسات الاقتصادية والاستراتيجية التي تصدرها مراكز الأبحاث الأميركية أولاً هذه الحقائق. كما تثبت دراسات تريغنسكي، الموجّه العقائدي للإدارة الحالية، أن جوهر هذه الإدارة إنما يقوم على إحلال السلام الأميركي في الشرق الأوسط بما يحقق الهيمنة الكاملة على النفط.

٤. من هنا نفهم لماذا كان (كازنر) يعتبر معسكر داوود بمثابة نجاح أو فشل مطلق بالنسبة لإدارته أولاً وليس بالنسبة للسادات أو بغير. ولماذا كان نجاحه سبباً في ارتفاع شعبيته من ٣٧٪ إلى ٥٧٪ خلال يوم واحد بعد المؤتمر. ونفهم لماذا يهتف شيوخ الكونغرس وجميع ممثلي الفعاليات السياسية والاقتصادية عبر المهرجانات المتلاحقة التي تقام لكازنر. فهل هو عيد النصر الأميركي لأن مصر السادات استعادت سيئها. أم لأن كازنر دشّن عصر أمركة النفط ودحر شعب النفط من خلال صهيبة زعامة مصر ومن يتبعها وراء الستار أو على حشبة المسرح مباشرة<sup>٢٢</sup>.